جُنحة الضيافة

صلاح باديس

خلال صيف 2021، عاشت الجزائر والحوض المتوسطي (وكذا مناطق أخرى من العالم) موجة حرائق غابات واسعة وصعبة. جبالٌ كاملة احترقت غاباتها. الصيف كان صعبًا، حتى على من هم في المدن الكبرى، الحرارة والرطوبة والرماد كان يصل على شكل ذرات غبار، بالإضافة لبداية أزمة المياه. فالجفاف وقلة الأمطار طيلة السنة جعلت السدود شبه فارغة. جاء هذا بعد سنة من الجائحة، وقبلها سنةٌ أخرى جرت خلالها الانتفاضة.. ولحظتها، بدت الكارثة المناخية جليّةً وواضحةً للجميع.

قضيتُ تلك الأيام أساعد صديقان لي في التحضير لزفافهما. كانا يسكنان حيًا يتربّع على قمة منطقة حيدرة العالية والغالية. حيهما عبارةٌ عن عمارتان ضخمتان تتقاطعان على شكل L، بناهما الفرنسيون سنواتٍ قليلة قبل أن يتركوا البلاد. يسكنان الطابق الثامن بلا مصعدٍ وبسلالم متعبة. وما عدا هاتان العمارتان، فكل ما يحيط بالحي كان منازل فخمة وسفارات وإقامات للبعثات الدبلوماسية.

والمكان الوحيد –خلال أزمة المياه- الذي كان يتوفر على الماء في الحنفية، وسط مئات الشقق والمنازل المتناثرة حول وداخل العمارتين، كان محلاً بائسًا، تحت مستوى الأرض، حيث كانت تعيش –"في الظل" مجموعةٌ من اللاجئين الماليين، يعملون في تقشير قناطير من البطاطا كل يوم، ثم تقطيعها ووضعها في عُلبٍ بلاستيكية كبيرة، كل هذا لصالح تاجر جزائري يبيع السلعة لاحقًا للمطاعم.

كانت الجماعة تتكون من نساء وأطفال ورجال.

كيف ولماذا كان محلّهم يتوفر على ماء الحنفية 24سا/24سا، في حين أن بقية المنطقة كانت يا إما لا تتوفر على المياه، أو تصلها في الصباح الباكر قبل أن تنقطع؟ لا أحد يدري. لكننا ركضنا نحوهم مُحمّلين بكل العُبوات البلاستيكية والجرادل لملأها. كان المنظر غريبًا حتى لمن رفض التفكير فيه، نحن، "المواطنون" الذين لم نقترب –بالنسبة لأغلبنا- ولم نكلم هؤلاء القوم، نقفُ في صفٍ طويل راجين كرمهم.

لأزيدَ من عقد، تدفّق عشرات آلاف[1] الأشخاص من منطقة الساحل نحو شمال إفريقيا، هاربين من الجفاف والإرهاب والفقر، في ظروف صعبة وأغلب الوقت مستحيلة، آملين مواصلة أوديستهم نحو السواحل الجنوبية لأوروبا. مستعملين نفس الوسائل التي يستعملها الشمال أفارقة للعبور: مراكب وزوارق صغيرة بمحركات غالبًا ما تخونهم في منتصف المسافة. المئات فُقِدوا أو فَقَدوا حياتهم وسط الصحراء الكبرى، آخرون على أرصفة المدن، والآلاف غرقوا في بحرٍ يرونه لأول مرةٍ في حياتهم. أما من نجوا من الصحراء ولم يركبوا البحر لسببٍ أو لآخر، وأغلبهم نساء وأطفال، فيعيشون في مجتمعات على هامش الطُرق السريعة، بالقرب من نقاط الزحام في ساعات الذروة. ينتشرون بين السيارات ليشحذوا، أو ينطلقون نحو

[1] في نهاية عام 2018 كشف تقرير نشره قسم الهجرة بوزارة الداخلية الجزائرية، أنّ الجزائر صدّت 40 ألف لاجئ أفريقي عن الهجرة غير النظامية عبر حدودها الجنوبية، عندما كانوا يحاولون التسلل عبرها إلى الجزائر مع كل من مالي والنيجر، سواء للإقامة في الجزائر أو لركوب قوارب الهجرة من الجزائر باتجاه أوروبا.

الشوارع الكبرى ليمدوا يدهم. آخرون، وهم الرجال، يعملون في مواقع البناء بأجورٍ زهيدة. بلا أوراق ولا تأمين ولا مدارس للأطفال، الذي وُلدَ الكثير منهم في الجزائر ويتحدّثون بلهجاتنا، بل وفهموا منطق الهزل والجد في كلام الجزائريين، وصاروا يقلدونهم.. كما يمكننا مشاهدة ذلك على مقاطع الفيديو في تيكتوك.

وقفتنا على عتبة الماليين كانت شيئًا عاديًا، طلبًا معهودًا بين البشر لطلب الضيافة والكرم، تمامًا كما في الحكايات العربية والإفريقية القديمة *"لو أنّ غريبًا في ظهيرة صيف.."* لكن الأمر أكثر تعقيدًا في أيامنا هذه. فهؤلاء المهاجرين جاؤوا إلى الجزائر طلبًا للضيافة، ولازالوا، لكنهم وجدوا أنفسهم في منطقة رماديةٍ بين الضيافة المشروطة وغير المشروطة.

+

كيف يمكننا ترجمة كلمة HOME إلى العربية؟

هنا بعض الاقتراحات:

- وطن.
- موطن.
- بيت.
- منزل.

+

سمعتُ بزكي حنّاش خلال مظاهرات حراك 2019 بالجزائر. كنت قد قرأت بمنشوراته على الفيسبوك، وحدّثني أكثر من زميل صحفي عمّا يفعله هذا الشاب، الذي دخل العمل الحقوقي والمدني مع مظاهرات 22 فبراير 2019. باختصار، كان زكي يوثّق لكل الإيقافات والاعتقالات التي تطال المواطنين خلال أو بعد المظاهرات المناهضة للسلطة. كان لوحده، هو الموظف البسيط في بلديةٍ بضواحي العاصمة الجزائر، مكتب حقوق إنسان متنقل. يسجل ويجمع المعلومات وينشرها، ولا يملك شيئًا سوى الكلمة والمعلومة.

وليس من الصعب على أي شخصٍ اليوم، أن يتصور صعوبةَ حياة شابٍ قرّر نذر نفسه للعمل التطوعي والسياسي، في أي مكانٍ في العالم- وبالخصوص في بلدٍ مثل الجزائر، لا الحريات الفردية والجماعية فيه مضمونة ولا الصحافة به مستقلة. لم أتعرّف على زكي، لم تُتح لنا الفرصة، لكني سمعتُ أنه أوقِف ودخل السجن بتهمٍ خطيرة في سنة 2022. بقي بضعة أشهر، ثم خرج. التقيته صدفةً مع صديق في أحد شوارع العاصمة. وتحدّثنا، عن الحراك الذي توقّف بسبب الكورونا وعن القمع وعن أخطاء التنظيم والثورات الفاشلة والأمل واليأس.

لمحته مرةً أخرى في حانةٍ بوسط المدينة. ثم سمعتُ أنه خرج –لا نعرف كيف- عبر الحدود البرية نحو تونس.

إلاّ أن الذهاب إلى تونس ليس حلاً آمنًا. لأن تونس -التي صارت منذ أزماتها السياسية والاقتصادية في عصر الرئيس قيس سعيّد- كأنها مُلحقةٌ بالجزائر. أصبح من السهل تسليم أفراد هاربين من الاعتقال السياسي. بعد شهور قرأت على صفحة زكي أنه قدّم نفسه لمكتب تونس للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، وتحصل على صفة لاجئ يعيش في السرية لحمايته من أن يُرحَّل من تونس إلى الجزائر، في انتظار بلدٍ ما يقبل طلب لجوءه.

كتب يومها، على صفحة فيسبوكه أنه عاش أصعب موقفٍ في حياته، "بكيت بحرقة ومازالني أبكي (...) في حياتي مريت بمواقف عديدة مؤلمة، لكني تجاوزتها، لكن هذا الموقف مازال يوجعني ويحطم لي قلبي

يوم بعد يوم، صرت مثل طفل صغير كلما سمعت كلمة الجزائر أبكي، لم أتقبل فكرة أني منفي عن وطني، النار راهي شاعلة في قلبي".

على صفحة زكي حنّاش في الفيسبوك، وقبل أن يصير لاجئًا في بلاد الناس، وخلال شهور الغليان السياسي والأمل، قرأت منشورًا شاركه بحرصِ المُبتدئين المُخلصين عن الفرق بين "الهجرة غير النظامية" و"الهجرة غير الشرعية"، قائلًا بأن الاسم الثاني الذي تستعمله الصحافة والناس هو "غير صحيح ومُضلّل، وبأن الهجرة قد تكون غير نظامية أو سرية لكنها ليست غير شرعية.. لأن الهجرة هي حق من حقوق الإنسان."

زكي اليوم بعيدٌ على وطنه، بضع مئات الكيلومترات، ينتظر اتصالًا يُحدّد مصيره ويأخذه لمكانٍ أبعد.

+

ضِمن شذرةٍ بعنوان "عادِيات" وفي فقرةٍ حملت عنوان "خارطة جغرافية قديمة" كتب فالتر بنيامين في كتابه *شارع نو اتجاه واحد*: "الأغلبية يفتشون في الحب عن وطنٍ أبدي. لكن آخرين، بالغي القلّة، يفتشون عن الرحلة الأبدية. هؤلاء الأخيرون هم سوداويون يجب أن يرهَبوا الاتصال بالوطن الأم. فالكائن الذي يفتشون عنه، هو من ينزع السوداوية عن الوطن الأم. وهم أوفياء له. وتعرف كتب الطب في العصر الوسيط سوداوية هذا النوع من البشر بعد الرحلات الطويلة".

أقرأها وأفكر في الفرق بين Homeland و Motherland، لو نترجمها حرفيًا ستعطينا: "أرض الوطن" و "الأرض الأم"، لكن طبعا يمكننا استعمال مصطلح "الوطن الأم".. أي حيث وُلدنا، أو إلى حيث تنتمي عائلتنا، وربما تكون "أرض الوطن" في مكانٍ آخر.. ليست هي بالضرورة "الأم"، تمامًا مثل اللغة.. هنالك لغةٌ أم وهنالك لغةٌ نختارها.

+

أذكر قصة زكي، حتى أُبَيّن لنفسي قبل الآخرين –ربما- أنّ أكثر من تعرّض لظلم وتعسّف النظام هنا، لم ينسَ أن هذا البلد به لاجئون، ولسنا نحن فقط من نعاني من عدم اكتمال مواطنتنا فيه. هناك من يعيش حالةً أسوأ ولا يملك أوراقًا ولا سقفًا فوق رأسه. وأمام حلم الهجرة –نظاميةً كانت أم لا- يتساوى الجميع، سواء كان جزائريًا أم من خلف الصحراء الكبرى.

لأنّنا، كجزائريين، ورغم أننا اختبرنا ليل الاستعمار الطويل والمجازر والحروب الأهلية واللجوء –قبل وبعد الاستقلال- إلاّ أننا ننسى هذا في غمرة الحياة اليومية، ويرتاح الكثير منّا لموقعه كضحية، أو لِنقُل كشاكي لا كُمُستقبِلٍ للشكوى.

ننسى، كجزائريين، أنّ "طعام الواحد يكفي الاثنين"[2] وننشغل بحروبنا الصغيرة التافهة، أغلب الوقت، حول الهوية وتوزيع فُتات الثروة – والدولة معنا بمؤسساتها، تقمعُ ساعةً وتتجاهل ساعةً أخرى. لم نستطع أن ننسى، أمام كل هؤلاء الذين يعيشون بيننا ونتجنّبهم فوق الرصيف ونُغلق أمام أيديهم زجاج سياراتنا، أننا لسنا ضحايا بدوامٍ كامل، ونأخذ وقتًا لمشاركة ما عندنا –وعندنا الكثير- مع هؤلاء البشر.

+

هل نقول لاجئ أم مهاجر؟

[2] حديث نبوي.

هل نقول عمّن يصلون الجزائر من الجنوب أفارقة (كأننا لسنا أفارقة مثلهم) أم نسمّيهم بجنسياتهم أم نستعمل تعبير subsaharien الفضفاض؟

+

منذ أيام مات أدولفو كامينسكي (1925-2023)، المُزوّرُ والمصوّر الفرنسي، المولود في الأرجنتين لأبوين يهوديان ينحدران من روسيا. كامينسكي خدم جبهة التحرير الوطني (FLN) خدمةً كبيرة طيلة حرب التحرير (1954-1962) بتوفيره الجوازات والأوراق المزوّرة للمناضلين والمناضلات. حتى أنه بعد الاستقلال حصل على "بطاقة مجاهد" مثله مثل أي جزائري حمل السلاح أو شارك في حرب التحرير. ثم انتقل للعيش في الجزائر، فبقي عشر سنوات وتزوج من جزائرية وأنجب منها بنتًا وولدًا.

عند موت كامينسكي، الذي اعترفت الدولة في روايتها الرسمية بدوره ونشرت دار نشر حكومية طبعةً جزائرية من كتاب ابنته سارة كامينسكي عن حياة والدها، إلّا أنه يُقدَّمُ كـ: "مُساندٍ وصديق للثورة الجزائرية". وهذا لا يخص كامينسكي وحده، الذي ترك الجزائر منذ الثمانينات وعاد إلى فرنسا، بل يتعلّق الأمر –تقريبًا- بكل مناضلي حرب التحرير الجزائرية الذي ليسوا من أصول عربية-أمازيغية، أو "السكان الأصليون" كما كان يسميهم الاستعمار الفرنسي.

لكن متى بدأ هذا التفريق بين "الثوار" و"أصدقاء الثورة"؟

حسب صديق جزائري، من أصل أوروبي، كان والداه مجاهدان في حرب التحرير (جزائريان مُخلصان للقضية، خلال حرب التحرير، ومساهمان في بناء البلاد بعد الاستقلال.. لكنهما اليوم، وبعد رحيلهما، يُنعَتان بـ "صديقَيْ الثورة"، حتى المستشفى الصغيرة التي تحمل اسميهما بشارع باستور وسط العاصمة، يمكننا أن نقرأ على لوحةٍ رخامية في المدخل *صديقا الثورة كلودين وبيار شولي*)، فإن الأمر بدأ منذ نهاية الثمانينات، مرّة تحت أقلام الصحفيين وأخرى من أفواه السياسيين.. بعضهم يقول الكلمة "صديق الثورة" والآخر يردّدها، حتى تبنّاها الخطاب الرسمي. وطُرِدَ الجميع من الحفلة "الجزائرية" الخالصة، لنبقى وحدنا وفيما بيننا، أو كما يقول المثل الشعبي الرائج: "احنا في حنا والبرّاني يسامحنا".

+

وعلى سيرة "البرّاني"، سنعودُ قليلا في الزمن، لما قبل استقلال الجزائر، لا لنتحدث عن برّاني/غريب ألبير كامو، ولكن عن شخصٍ آخر عاصر الكاتب الفرنسي ووُلِد مثله في الجزائر –لكن لعائلة يهودية جزائرية الأصل- وانطلق ليغزو العالم.. جاك ديريدا، الفيلسوف.

وُلِد ديريدا لعائلة جزائرية يهودية سفرديم، وجودها سابق للاستعمار الفرنسي، ولكنها –على عكس الجزائريين المسلمين، ومثل بقية الجزائريين اليهود- تحصّلت على الجنسية بموجب مرسوم كريميو سنة 1870. عاش في الأبيار، بين منطقة حيدرة حيث حصلت قصة المهاجرين الماليين، ووسط الجزائر العاصمة حيث توجد مستشفى كلودين وبيار شولي. قبل أن ينتقل إلى فرنسا نهاية الأربعينات ومنها إلى العالم. تستقل الجزائر سنة 1962، ويغادر اليهود مع المستعمرين الأوروبيين، لأسبابٍ يطول شرحها.[3]

[3] أنصح بقراءة كتاب المؤرخة مليكة رحال لمزيد من الإطلاع:

- *Algérie 1962, Une histoire populaire,* Paris, La Découverte, 2022.

لن يعود إلى الجزائر سوى مرة واحدة، خلال السبعينات، ثم ينقطع نهائيًا عن موطن أجداده.. وينقطعُ الموطن نفسه عن الكثير من أبناءه الذين شكلوا صورته وهويته خلال فتراتٍ طويلة.

كتب ديريدا كثيرًا، كثيرًا كثيرًا.. فعلًا (وأريد أن أتساءل من بعد إذن القارئ من أين كان يأتي بالوقت -هو الذي ألّف كتابًا بعنوان *إعطاء الوقت*- لكتابة كل ما كتبه؟). ومن جُملة المواضيع العديدة التي تطرق إليها، له كتابٌ بعنوان *أحاديةُ لغة الآخر*، يتطرّق فيه لعلاقته باللغة الفرنسية، هو الولد اليهودي الذي كان يتكلم عاميةً جزائرية يهودية ويحيى في مجتمعٍ استعماري.. يتحدث ديريدا بإسهاب عن المسموح والمحظور في المدرسة الفرنسية في زمنِ "فيشي" والاحتلال النازي، كذلك يطرح المسألة اليهودية-الجزائرية والفروقات اللغوية التي لاقاها اليهود السفرديم في فرنسا لاحقًا لما التقوا باليهود الأشكيناز... أسئلةٌ كثيرة تدور، أيضًا، حول مسألة الضيافة.. من يستضيف من؟ وبأي لغة؟

"ما هو مستقبل بلدٍ وثقافةٍ ولغةٍ عندما نتجرأ بالحديث عن 'جنحة الضيافة'، عندما تصير الضيافة، في عين القانون وممثليه، جنحةً؟" هكذا كتب ديريدا في منتصف التسعينات، في نصٍ قرأه في فعالية تضامن مع اللاجئين والمواطنين الفرنسيين الذين فتحوا بيوتهم لهؤلاء الأخيرين ووقعوا في "جنحة الضيافة".

وقتها، كان ديريدا يُدرّس سمينار حول الضيافة وسياساتها، ودُعي لإلقاء كلمة.

ومنذ الثمانينات كان ديريدا يعمل على مسألة الضيافة في اللغة، بتقرّبه من تجارب كتاب المغرب الكبير مثل آسيا جبار وعبد الكبير الخطيبي، أبناء الشمال الإفريقي حيث تعود أصوله وحيث وَلِد، واهتمّ بتقاطع اللغات في نصوصهم المكتوبة بلغة المستعمر السابق: الفرنسية.

هنالك كرمٌ وسخاء لدى المهاجر، الذي يحلُّ على مُدن الغير ويتعلّم لغتها. وديريدا نفسه، جاء من الجزائر إلى باريس في الخمسينات واختبر الغُربة والمنفى، في الجسد واللغة.

+

في طفولتي، لما بدأت كتابة الشعر، محاولًا تقليد الشعراء العرب في القرن العشرين، وخاصة نزار القباني ومحمود درويش في بداياته، كنتُ دائمًا ما أقحم كلمة "الوطن" في قصائدي. وكنتُ أبكي حال هذا "الوطن"، إلا أنّ معناه كان غائمًا في رأسي، فمرات كنت أقصد به الجزائر وأحيانًا كنت أقصد به "الوطن العربي"، وهو وطنٌ لم أعرفه سوى في الكتب. مع الوقت، ومع تنوّع قراءاتي واكتشافي لقصيدةً أكثر حداثةً وتركيبا.. وأكثر بساطةً من حيث الكتابة، وأقصد هنا قصيدة النثر مع سركون بولص ووديع سعادة وصلاح عبد الصبور –إن كان أكبر سنًا- تغيّرت كلمة الوطن في قصائدي إلى المدينة، وصارت هي بديلًا للوطن.. ومع التقدّم في الكتابة، من القصيدة إلى القصة القصيرة فممارسة الصحافة.. ظلّت رقعة الوطن الجغرافية تصغر حتى صارت في حجم الحي الذي أسكن فيه.. قد يصير الوطن شارعًا باتجاهٍ واحد ويقع بيتي في نهايته.

+

عودةً إلى اللاجئين الماليين.

بعد أشهرٍ من حادثة المياه، انتبهتُ لدى زياراتي لبيت أصحابي أن المحل الذي كان يشغله الماليون مُغلق، وعندما سألت عرفت أنهم رُحِّلوا. جاءت قوّات الأمن وأخذتهم وأخلت المكان. تساءلتُ وقتها، هل كان ذلك المحل "وطنًا مؤقتًا لهم"؟ الأكيد أنهم كانوا "مؤقّتين" بالنسبة لسُكّان الحي. عاشوا في الظل ولم يختلطوا بالجزائريين، أتذكر فقط أولادهم، لا يتجاوزون السنتين، يلعبون في الساحة الصغير أمام المحل ويتنقّلون بخطواتٍ متردّدة بين أهلهم المنهمكين في العمل والناس الجالسين في المقهى أو الواقفين على تجارتهم. لا

الجزائريون يتحدثون لغتهم ولا الماليون يتكلمون الدارجة الجزائرية. فقط الأطفال، بحكم ولادتهم هنا وتعودهم على اللغة، شبّوا وهم ينطقون بضع كلمات.

أتخيّل رحلة تلك المجموعة، نساء وأطفال ورجال، أكبر واحدٍ فيهم قد لا يتجاوز الـ 35 سنة. أركّب سيناريو عن ترحيلهم، كما قرأت في تقارير المنظمات غير الحكومية وبيانات وزارة الداخلية الجزائرية، طيلة سنوات عملي كصحفي.

تداهم قوّات أماكن تجمع أو عمل المهاجرين، يحمّلون في حافلات ويُقادون في قوافل للهلال الأحمر الجزائري إلى تمنراست 1900 كلم جنوب العاصمة، ومن هناك إلى مكانٍ يُسمى "نقطة الصفر" على حدود الجزائر-النيجر، ثم يتركون للمشي في الصحراء. وسط اللا مكان. ويتم الأمر في أغلب الأحيان دون التنسيق مع السلطات النيجيرية، فيتوه من يتوه ويموت من يموت خلال الرحلة نحو قرية أساماكا التي يتجمّع فيها المهاجرون.

لا فرق بين نيجري وبوركينابي وإيفواري وسينغالي عند إرجاعهم للـ"نقطة صفر". كلهم "أفارقة" في نظر القوّات التي تشحنهم من كل مدن الجزائر لتطردهم خارج الحدود. حسب بيانات الهلال الأحمر الجزائري هناك تكفّل باللاجئين وأولادهم، خلال "رحلة الطرد"، رعاية صحية لمن يحتاجها وتطعيمٌ للرُضّع. ومع السلامة.

"النقطة صفر"، هكذا تُسميها كل التقارير.. بعد أن يقطع هؤلاء المهاجرون الجزائر من جنوبها إلى شمالها، هذا البلد الذي هو بحجمِ قارةٍ صغيرة، بعضهم يبقى لسنوات وآخرون لأشهر، يعودون للنقطة صفر.. وكأن رحلتهم نحو الجنوب تنتمي للسالب. تحت الصفر. هل هذا هو الوطن؟ ما فوق الصفر؟ وكل ما تحته هو برّا الوطن؟ وماذا عمّن يعيشون تحت الصفر داخل حدود الوطن؟

+

قد يكون هذا بداية جوابٍ.. من يعيش تحت الصفر داخل حدود الوطن. غير المُعترف به لسببٍ أو لآخر، فرفضُ الآخر/الغريب لا ينتظر من يأتي من خارج الحدود حتى يطفو على السطح، بل يبدأ بالقريب، مهما كان السبب ومهما كان حجمه. تكفي صفة "الغريب"، الذي لا يُشبهـ(نا).